المقدمة

المقدمة

يشير الباحثون إلى أن أول فكر صوتى يرجع إلى أبى الأسود الدؤلى (ت٦٩هـ) الذى وضع رموزا للحركات، عندما بدأ الخطوات الأولى فى وضع النحو العربى بتحرير أواخر الكلمات فيما سمى نقط الإعراب[١] «فكانت الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة تحته، والضمة نقطة أمام الحرف، فإن لحق شيئاً من هذه الحركات التنوين، وضعت نقطتان، إحداهما للحركة، والثانية للدلالة على التنوين»[٢] ثم جاء الخليل بن أحمد الفراهيدى (ت ١٧٥هـ) فوضع أسس هذا العلم فى كتابه العين، متبع المنهج التجريبى الذاتى، معبراً عنه بالذوق، أى ذوق الحروف، بتجربة نطقها، والتأمل الذاتى فى موضع تكون كل حرف وصفاته ومخرجه، وفى ذلك يقول الليث حاكيا عنه: «وإنما كان ذوقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف، ثم يظهر الحرف (أى المراد ذوق الحرف)[٣] نحو: أب - أت - أخ - أع - أغ فوجد العين أدخل الحروف فى الحلق، فجعلها أول الكتاب، ثم قرب منها الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو الميم»[٤]. ولقد وفقوا فى رسم رموز هذه الأصوات كتابة لإبلاغ من بعدهم....[٥].

---

(١) د. حسن عون، اللغة والنحو من ص ١٧٩ : ص ١٩٩ .

(٢) الدانى، كتاب النقط «ضمن كتاب المقنع فى رسم المصاحف» من ص ١٢٩ : ص ١٣١ .

(٣) ما بين المعقوفين زيادة من عندنا.

(٤) الخليل بن أحمد، العين: ج١ ص ٤٧ .

(٥) د. محمد حسن جبل، المعنى اللغوى، ص : ٥٤ .

وهنا نقف قليلا مع ما ذكره الخليل لنعرف أنه بنى كتابه على أساس صوتي يختلف عن نظام أبجد هوز، ونظام نصر بن عاصم، لأنهما مبدوءان بالألف، والألف حرف معتل، فكر فيه، فلم يمكنه أن يبتدئ من أول «أ، ب، ت، ث» لأن الألف حرف معتل، فلما فاته الحرف الأول كره أن يبتدئ بالثاني - وهو الباء - إلا بعد حجة، واستقصاء النظر، فدبر ونظر إلى الحروف كلها وذوقها، فصير أولها بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق»(١).

ثم جاء من بعده تلميذه النابه سيبويه (ت ١٨٠ هـ) فعرض للدراسة الصوتية في كتابه «الكتاب» دستور النحو العربي في مواضع عديدة، منها الإدغام، والإبدال، والإمالة، وأحوال الهمزة... إلخ(٢).

وكان منهجه نابعاً من منهج أستاذه الخليل، قائما على التجربة الذاتية معتمدا على المشاهدة والاستقراء، والوصف الدقيق للحروف.

ثم أتى عبقري العربية أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) فأفرد للدراسة الصوتية كتابا بعنوان «سر صناعة الإعراب» أفرغ فيه جهدا كبيرا يضفي على البحوث الصوتية لونا من القوة، ويبين أنها دراسة لغوية مهمة يجب على عالم اللغة أن يضعها في الاعتبار، ومعظم الآراء التي ساقها في

---

(١) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٢) سيبويه، الكتاب، ينظر في الجزء الرابع كله، والمبرد، المقتضب «باب البدل» ج١ ص ١٩٩ :٢٢٨، وباب الإدغام ص ج١ ص ٣٢٨ :٣٤٢، وباب الإمالة ج٣ ص ٤٢ :٥٢، وباب الهمز ج١ص ٢٩٢، والزجاجي، الجمل ص ٣٧٥، وابن سينا، أسباب حدوث الحروف ص ٣، ٤.

كتابه نالت إعجاب المستشرقين وعلماء اللغة الأوربيين، لتوصله إلى ملاحظ دقيقة لفهم أسرار اللغة، يقول برجستراسر: «ولم يسبق الغربيين فى هذا العلم إلا قومان من أقوام الشرق، وهما أهل الهند يعنى البراهمة والعرب»(١) ويقول فيرث: «إن علم الأصوات، قد نما وشب فى خدمة لغتين مقدستين هما السنسكريتية والعربية»(٢). فالعرب - كما يقول الدكتور عبد الغفار هلال - من السابقين فى هذا الميدان، لأنهم ساروا بلغتهم على نمط خاص من ابتكار العلماء العرب، وباستقلال عنه الهند(٣).

ومما يؤيد هذا أن ابن جنى ربط بين علم الأصوات وعلم الموسيقى، بقوله: «إن علم الأصوات والحروف له تعلق ومشاركة للموسيقى لما فيه من صنعة الأصوات والنغم»(٤).

وجهاز الصوت عنده كالناى، فإن الصوت يخرج منه مستطيلا أملس ساذجا، كما يجرى الصوت فى الألف غفلا بغير صنعة، فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناى المنسوقة، وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات، وسمع لكل خرق منها صوت لا يشبه صاحبه، فكذلك إذا قطع الصوت فى الحلق والفم باعتماد على جهات مختلفة، كان سبب استماعنا هذه الأصوات، ونظير ذلك أيضاً وتر العود فإن الضارب إذا ضربه، وهو مرسل

---

(١) برجشتراسر، التطور النحوى للغة العربية: ص ١١.
(٢) د. أحمد مختار عمر، البحث اللغوى عند العرب، ص ٧٩.
(٢) أصوات اللغة العربية: ص ١٣.
(٤) ابن جنى، سر صناعة الإعراب، ج١، ص ١٠.

سمعت له صوتا، فإن حصر آخر الوتر ببعض أصابع يسراه، أدى صوتا آخر، فإن أدناها قليلا، سمعت غير الاثنين»[١].

ويرى أستاذنا الدكتور عبده الراجحى «أن هذه الصورة التى قدمها ابن جنى تعد خطوة متقدمة جداً فى الدرس اللغوى، لكنها تمثل لدينا صورة صحيحة للتطور عند العرب، نقصد تطور المنهج، لأن البدء كان سليما، إذ كان صادرا عن الاتصال المباشر بالظاهرة اللغوية»[٢].

ويصدر الصوت عن جهاز يسمى جهاز النطق الإنسانى Organs Speech يشبه الآلة الموسيقية، أو هو أكمل آلة موسيقية من حيث المرونة، ومن حيث الإمكانات، أعنى من حيث القدرة على إخراج أنواع من الأصوات لا حد لها»[٣]. إن ما يخرج بالصوت يدل على ما فى النفس، وهى التى تسمى آثاراً والتى فى النفس (تدل) على الأمور، وهى التى تسمى معانى، أى : مقاصد للنفس[٤].

ويحسن بنا أن نقتبس هذا النص للعلامة ابن جنى لنرى كيف أنه أدرك الفرق بين الحقيقة الصوتية التى هى العملية الحركية ذات الأثر السمعى، وبين الحرف كوحدة تجريبية، قد تكون مكونة من صوت واحد، أو عدة أصوات، يقول: «اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا حتى يعرض له فى الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا»[٥]

---

(١) ابن جنى، سر صناعة الإعراب، ج١، ص ٩ وما بعدها.
(٢) د. عبده الراجحى، فقه اللغة فى الكتب العربية ص ١٣٣ .
(٣) د. محمود السعران، علم اللغة «مقدمة للقارئ العربى ص ٩٨ .
(٤) د. محمد حسن جبل، المعنى اللغوى : ص ٥٢ .
(٥) ابن جنى، سر الصناعة: ج١، ص ٦ .

وهنا ندرك أنه فرق بين الصوت والحرف، فلا يسمى الصوت حرفا حتى ينقطع عند جزء معين من أجزاء أعضاء النطق، ونحن نعتقد أن ما وصلت إليه الدراسات الحديثة فى هذا المجال جاء مبنيا على أساس هذا التفريق الذى حدده ابن جنى.

ولكن، ما مفهوم كل من الصوت، الحرف، المخرج، الحيز؟

الصوت: كما يقول عبقرى العربية ابن جنى - مصدر صات الشيء يصوت صوتاً فهو صائت وصوَّت تصويتاً فهو مصوت، وهو عام غير مختص... ويقال رجل صات، أى شديد الصوت... ولفلان صيت إذا انتشر ذكره بين الناس...[1] وصات وأصات وصوّت كله ينادى، ويقال: صات يصوت صوتاً فهو صائت: معناه: صائح[2] وعلى كل حال فإن الصوت: هو الأثر السمعى الذى تحدثه تموجات ناشئة عن اهتزاز جسم ما[3] والأصوات فى اللغة هى مادة الألفاظ، وأساس الكلام المركب، والعمدة فى تكوين الأداء، وإعطائه رنينا إضافيا يزيد من وضوح التعبير، وصدقه على حمل فكرة المتكلم، أو التأثير بها فى السامع، وهذه الأصوات تتشخص ويتميز بعضها من بعض فى اللغات[4].

أما الحرف لغةً فهو كل واحد من حروف المبانى الثمانية والعشرين التى تتركب منها الكلمات، وتسمى حروف الهجاء، والحرف كل واحد

---

(١) المصدر السابق: ج١ ص ١١، وعبقرى اللغويين: ج٢ ص ٥١٨.
(٢) اللسان، مادة صات.
(٣) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة صات: ج١، ص ٥٤٧.
(٤) د. حسن ظاظا، كلام العرب «من قضايا اللغة العربية» ص ٧.

من حروف المعانى، وهى التى تدل على معانٍ فى غيرها وترتبط بين أجزاء الكلام[١].

وفى الاصطلاح: حد منقطع الصوت وغايته وطرفه[٢] وهو عند القدماء مرادف للصوت، يقول ابن يعيش: «إنما هو صوت مقروع فى مخرج معلوم»[٣].

ومعنى هذا أن الصوت الناتج عن حركة الحبلين الصوتيين ووضعهما هو ما نسميه الحرف.

أما المخرج فهو عند القراء والصرفيين: «موضع خروج الحرف وظهوره وتمييزه من غيره بواسطة الصوت، وفى علم الأصوات: «نقطة فى مجرى الهواء، يلتقى عندها عُضوان من أعضاء النطق التقاء محكماً مع بعض الأصوات، وغير محكم مع أصوات أخرى»[٤] وقال ابن يعيش: «المخرج هو المقطع الذى ينتهى الصوت عنده»[٥].

أما الحيز فهو مكان النطق، وهو منطقة أوسع من المخرج، بحيث يضم مجموعة من المخارج المتقاربة مثل حيز الشفتين»[٦] وحيز الشفتين يشتمل على مخارج الحروف الشفوية (ب - و - ف - م).

---

(١) المعجم الوسيط، مادة «حرف»: ج١، ص ١٧٤.
(٢) سر صناعة الإعراب: ج١، ص ١٦.
(٣) شرح المفصل: ج ١٠، ص ١٢٤.
(٤) المعجم الوسيط، مادة «خرج»: ج١، ص ٢٣٣.
(٥) شرح المفصل: ج ١٠ ص ١٢٤.
(٦) الخليل بن أحمد، العين: ج١، ص ٦٤.

ولا يخفى علينا أن هناك علاقة متشابكة بين علمى الأصوات والبلاغة، فعلماء البلاغة فى حاجة ماسة إلى علم الأصوات، فالكلمة لا تتسم بالفصاحة عندهم إلا إذا كانت من حروف متباعدة المخارج يسهل نطقها على المتكلم، وقد أفردوا حروفا معينة أسموها بالحروف المتنافرة يجب على المتحدث أن يتنحى جانبا عنها حتى يعد فى نظرهم بليغا، والاقتصار على انتباه السامع يستلزم اختيار الألفاظ، ثم وضعها فى جملة مع تنسيق أجزائها، ثم تنسيق الجملة أو الجمل كلها فى النص الأدبى، واختيار الألفاظ يكون بتفضيل أسهلها نطقا، وأقلها ثقلا فى الحرف، حتى يسهل تلقيها واستيعاب مقاطعها، وإدراكها فى غير تكلف ولا تعسف»[1].

ونفهم مما سبق، أننا عن طريق علم الأصوات، نستطيع أن ننطق النطق الصحيح للكلمة، ونتابع ما يطرأ على الكلمات من تغيير على مر العصور.

ولقد تأثر هذا النوع من الدراسات الصوتية بعدة عوامل جعلته يتطور تطورا ملحوظا، يرجع أهمها إلى :

١ - التطور الطبيعى للأعضاء فى الفصيلة الإنسانية، لأن أعضاء النطق فى تطور طبيعى مطرد[2] وهذا التطور تلقائيا لا دخل فيه للإرادة الإنسانية.

٢ - تفاعل أصوات الكلمة بعضها ببعض[3].

٣ - أثر العوامل النفسية والاجتماعية والجغرافية والأدبية[4].

---

(١) د. حفنى ناصف، التصوير البيانى ص ٢٥ .

(٢) د. على عبد الواحد وافى، علم اللغة، من ص ٢٥٠ : ٢٨٩ .

(٣) المصدر السابق: ص ٢٩٨ .

(٤) المصدر السابق: الصفحة نفسها.

٤ - الأخطاء السمعية، كخلط بعض الأصوات بأصوات أخرى قريبة منها في المخرج، كالخلط بين الفاء والثاء في «شعث وشعف» وهذه الأخطاء السمعية ناتجة عن ضعف السمع أو اختلال أجهزته.

ومن هنا يتبين لنا أن الدراسات الصوتية تتطور تطورا ملحوظا، وذلك لأن اللغة كائن حي يخضع للتطور والتغيير من جيل إلى آخر، فاللغة دائمة التطور مهما أحيطت بسياج من الحرص عليها، والمحافظة على خصائصها، لأن اللغة ليست في الحقيقة إلا عادات صوتية تؤديها عضلات خاصة، ويتوارثها الخلف عن السلف، غير أن تلك العضلات لا تؤدي تلك العادات الصوتية بصورة واحدة في كل مرة، بل قد يلحظ عالم الأصوات بعض الفروق الدقيقة بين نطق أبناء اللغة الواحدة في البيئة الواحدة[1] وهي ظاهرة اجتماعية تحيا في أحضان المجتمع، وتستمد كيانها منه، ومن عاداته وتقاليده، وسلوك أفراده، كما أنها تتطور بتطور هذا المجتمع، فترقى برقيه وتنحط بانحطاطه.

وكان من نتيجة تطور اللغة أيضا دخول الدراسات الصوتية في مجالات متعددة، كالطب والهندسة والموسيقى والفنون... إلخ.

وخلاصة القول أن لغويي العرب القدامى - خصوصا الخليل وسيبويه - وصفوا الحروف وصفاً دقيقاً أثار دهشة المستشرقين وإعجابهم فقد تحدثوا عن صفاتها ومخارجها بما يدل على إرهاف الحس العربي وشفافيته.

أما المنهج الذي سرت عليه في هذا البحث، فإنه يقوم على الملاحظة

---

(١) د. إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية: ص ٢٣١.

والتحليل والوصف الدقيق لمخارج الحروف وصفاتها، ومراحل تطورها، والتأمل الذاتى لها، حسب ما تقتضيه نوعية الدراسة على النحو الآتى :

- **المنهج الوصفى** Descriptive Method استخدمته أثناء الملاحظة والوصف الدقيق لمخارج الحروف وصفاتها.

- **المنهج التجريبى** Experimental Method تتبعته أثناء التأمل الذاتى والتدبير، واستقصاء النظر فى موضع تكون كل حرف وصفاته ومخرجه.

- **المنهج التاريخى** Historical Method تتبعت من خلاله دراسة الأصوات، ومراحل تطورها ونموها فى ضوء ما وصل إليه علماء اللغة المحدثون.

هذا وقد تضمن هذا البحث سبعة فصول، يسبقها مقدمة، تحدثت فيها - بإيجاز - عن الأسس التى قامت عليها الدراسة الصوتية، والعوامل التى أدت إلى تطور علم الأصوات على مر العصور، وذلك لأن اللغة كائن حى يخضع للتطور والتغيير من جيل إلى آخر.

الفصل الأول وعنوانه جهاز النطق الإنسانى تحدثت فيه عن أعضاء النطق «الرئتين - القصبة الهوائية - الحنجرة - البلعوم - الحلق - تجويف الفم - الشفتان - الخيشوم - الأنف» ثم كيفية حدوث الصوت فى جهاز النطق.

أما الفصل الثانى فتحدثت فيه عن مخارج الحروف المحققة والمقدرة وكيفية تحديدها، وبيان عددها وتصنيفها على نحو ما نص عليه علماؤنا القدامى والمحدثون. ثم تناولت صفات الحروف بشىء من التفصيل.

أما الفصل الثالث فعنوانه الإحلال بين الصوائت القصيرة Replacement of short vowels تحدثت فيه عن كيفية حدوث الحركات القصيرة Short Vowels (الفتحة والضمة والكسرة) وكيفية تكونها، تلك التى أطلقوا عليها أبعاض حروف المد، وتحدثت كذلك عن عوامل تبادل الحركات فى اللغة، ثم مفهوم المثلث لغة واصطلاحاً، ثم درست نماذج للإحلال بين الصوائت القصيرة باختلاف المعنى، وأخرى باتفاق المعنى.

أما الفصل الرابع فعنوانه الإبدال Substitution تحدثت فيه عن مفهومه اللغوى والاصطلاحى عند النحويين وعند الصرفيين، ثم طُرُق التعرف عليه فى الكلمة، وأسباب شيوعه فى اللغة، ثم عرجت - بإيجاز - على رأى المحدثين فى الإبدال، ثم تناولت نماذجه عند اللغويين متبعاً منهجاً علمياً قائماً على تلمس العلاقة الصوتية فى المخرج أو الصفة بين المبدل والمبدل منه، بشرط اتحادهما فى المعنى، وما عدا ذلك حكمنا عليه بأنه من المترادفات أو الأخطاء السمعية أو التصحيف أو التحريف أو اللثغات الخاصة، أو غير ذلك... ثم فَصَّلت القول بعد ذلك عن التصحيف والتحريف ودورهما فى نشأة الإبدال.

أما الفصل الخامس فتناولت فيه ظاهرة الإدغام Incorporation تحدثت - أولا - عن الإدغام لغة واصطلاحاً، وحروف الفم وعلاقتها بالإدغام، ثم أقسامه، ثم ذكرت نماذجه عند علمائنا الأقدمين، محللاً آراءهم ومفسراً لها. ثم تناولت ظاهرة المخالفة الصوتية Dissimulation مفهومها، وأقسامها، وعلتها، والأسباب التى أدت إليها، ثم ذكرت نماذجها.

أما الفصل السادس فعنوانه «الفتح والإمالة» بينت فيه مفهوم الإمالة عند النحويين وعند اللغويين، والغرض منها، والفرق بينها وبين الفتح وأسبابها وأنواعها، ثم تناولت نماذجها مبيناً سبب إمالتهم لتلك الكلمة أو ذاك بالشرح والتفصيل.

أما الفصل السابع فيتناول «ظاهرة الهمز والتخفيف» مبيناً أحوالها ونماذجها، ثم نوهت بالإشارة إلى أن تحقيق الهمز هو الأصل، والتخفيف فرع، وأن تحقيق الهمزة وحذفها لا يكون إلا من أجل خفة الصوت واقتصاداً للجهد العضلي.

وبعد... فلقد بذلت في هذا البحث ما وفقني الله إليه، وأسأله النفع به، وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المؤلف

أهداف الدراسة الصوتية

لقد اهتم علماؤنا القدامى والمحدثون بدراسة الأصوات اللغوية لحرصهم على ضبط ألفاظ القرآن الكريم، حبل الله المتين، ونطقهم إياها نطقاً سليماً بعيداً عن اللحن والخلل، ذلك أن الأداء السليم للغة يحفظ لها رونقها فى الأسماع ووقعها الساحر فى النفوس، ويفتح لها القلوب فتعى ما تسمع، ثم تتأمله فى تؤدة وارتياح.

هذا ويمكننا تحديد أهداف دراستنا لأصوات اللغة على الوجه الآتى :

١ - إجادة نطق ألفاظ القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، نطقاً سليماً باللغة العربية التى شرفها الله تعالى فَنَزَّل بها القرآن الكريم.

٢ - تفيد هذه الدراسة فى رصد التطور الصوتى الذى يعرض للأصوات على ألسنة الناطقين بشرط أن يكون هذا التطور محكوماً بقانون لغوى كاتحاد المخارج أو تقاربها، وكاتحاد الصفات أو بعضها. ومن نماذجه تطور القاف إلى غين فى نطق أهالى السودان فيقولون: الغرون بدلاً من القرون، والغمر بدلاً من القمر. وتطور الجيم إلى غين فى نطق أهالى الكويت فيقولون: ريغن بدلاً من ريجن. وتطور التاء إلى دال فى نطق بعض الأهالى فى صعيد مصر، كقولهم بردجال بدلاً من برتقال، والبعض الآخر ينطق القاف همزة واللام نوناً فيقول: برتأن بدلاً من برتقال. وفى لبنان أيضاً ينطقون القاف همزة فيقولون: الموسيأى بدلاً من الموسيقى.

٣ - تمكننا دراسة الأصوات من معرفة التغيرات التاريخية فى الأصوات كتطور الباء المهموسة فى اللغة السامية الأم إلى (فاء) فى اللغات

السامية الجنوبية وهى العربية والحبشية، وقد بقى الأصل كما هو فى اللغات السامية الشمالية وهى العبرية والآرمية والأكادية، ومثال ذلك كلمة Pól (פֹּל) العبرية صارت فى العربية فول، وفى الحبشية Fál (ፋል)[1].

ونتعرف من خلالها أيضاً على قانون المماثلة الصوتية Assimilation كقلب تاء الافتعال طاءً تارة كما فى كلمة اصتبر = اصطبر، وقلبها تارة أخرى دالاً كما فى ازتجر = ازدجر.

٤ - تفيد هذه الدراسة كذلك فى التعرف على اللهجات المختلفة للقبائل كقول ابن خالويه فى شرح الفصيح : «اختلف رجلان فى الصقر، فقال أحدهما بالسين، وقال الآخر بالصاد، فتحاكما إلى أعرابى ثالث، فقال: أما أنا فأقول الزقر بالزاى، فقال ابن خالويه: فدل على أنها ثلاث لغات»[2].

٥ - تفيد دراسة الأصوات فى التعرف على عيوب أعضاء النطق والسمع[3]، فالميم تخرج من الخيشوم لما فيها من الغنة، فلذلك تسمعها كالنون. وتفيد أيضاً فى دراسة عيوب الأداء الصوتى كالرُّتة واللُّثغة»[4].

---

(١) د. رمضان عبد التواب، التطور اللغوى: ص ٢٤ .

(٢) السيوطى، المزهر : ج١، ص ٤٧٥

(٣) للتعرف على عيوب أعضاء النطق، انظر د. عبد الغفار هلال، اللهجات العربية ص ١٤٨ وما بعدها.

(٤) الرُّتة : تعنى العجلة والسرعة فى الكلام، وهى أن يقلب المتكلم اللام ياء نحو نطقهم: جمل : جمى، والراء تتحول عند الألثغ إلى غين أو همزة أو لام، فكلمة يا ربى قد تنطق يا غبى ويا أبى ويالبى، انظر هذا المثال فى السيوطى، المزهر : ج١ ص ٢٦٥، واللهجات العربية للدكتور هلال : ص ١٤٩ . والمعجم الوسيط : مادة لثغ: ج٢، ص ٨٤٨ .